# خاتمة القول فى حافظ

## ١

## بين حافظ وشوقى

رأيت من الخير — إتماماً للبحث — أن أكتب فصلا عن حافظ وشوقى ، لأنهما كانا الشاعرين اللذين احتلا مكان الصدارة بين الشعراء فى الثلث الأول من هذا القرن، وقد شغلا الناس رَدَحاً طويلا من الزمان . ولا زالت أقلام مؤرخى الأدب ونقّدته تجرى فى المقارنة بينهما والمفاضلة بين شعريهما . وكان لكل منهما أنصار يتغلّون فى تأييده ويشيدون بذكره فى الآفاق. ولا زال هذان الشاعران الفرسيّن المجلّيين فى حلبة الشعر العربى الحديث. ولم يستطع شاعر عربى آخر أن ينتزع من أحدهما قصب السبق حتى الآن . وكان هذان الرجلان متلازمين فى أفكار الناس ، فلا يُذكر أحدهما حتى يتداعى له اسم الآخر . ولحافظ فى ذلك نادرة لطيفة ؛ فقد حدث أن كتب المرحوم الدكتور حسين هيكل مقالا عنهما بعنوان « شوقى وحافظ » ، فبلغ حافظاً أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان لا يرى حافظاً نداً له ، فقال حافظ : «لماذا يغضب ؟ إننا متلازمان، أما سمع الناس يقولون : " زفتى وميت غمر " فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون " سميط وجبنة " و " خيار وفقوس " و « عسل وبصل » ، ثم يعقّب — رحمه الله — على ذلك بقوله : أما من يكون العسل ، ومن يكون البصل ، فهذه مسألة أخرى »[1] .

وأريد فى هذا الفصل أن أعقد مقارنة عاجلة بين الشاعرين تبيّن منحى كل منهما الفنى والظروف التى اختلفتْ عليه وأثّرت فى اتجاهاته الفنية ، فأقول :

---

(١) الفكاهة فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ٧١ .

كان الخلاف بين الشاعرين يتصل بالمزاج وأفق الخيال وطريقة التفكير أولا ، وبالبيئة والنشأة وظروف الحياة والثقافة ثانيا .

فقد كان شوقى رجلا هادئ الطبع وديع النفس ، يعيش فى جو من التأملات وذكريات الماضى البعيد الملىء بتاريخه ودياناته وأحداثه وعبَره . وقد أتاحت له الحظوة لدى الخديو والحياةُ الرخية الناعمة التى كان يحياها أن يجلس فى برج عاجى وينظر إلى الدنيا بمنظار الحكيم الفيلسوف الذى يشهد زيفها وخداعها وزخرفها وذهاب بنيها إلى غير رجعة ، ويستخلص من ذلك كله ما يستخلصه المعلم الناقد، ويُزْجيه إلى الناس حكما ونُصْحا وتوجيهاً . وقد أعانته بسطة رزقه على أن يوفر همه كله فى إجادة نظم القريض ، فجال فى آفاق الشعر مطلق الجناح .

وقد شهد شوقى حقبة طويلة من تاريخ مصر والعالم العربى وكان يشهد هذه الأحداث من مربأ عال لم يتيسر لغيره من أدباء عصره أن يتسنمه ، وتبلورت فى نفسه أحداث هذا العهد الطويل ، واختلطت بأحاسيسه وامتزجت بمشاعره ، فأبرز لنا ذلك كله فى قصائد غرّاء استهوت أفئدة المصريين والعرب والمسلمين جميعا ، ووجدت فيها الطوائفُ على اختلافها غذاء لعقولهم وأفكارهم ، وشُغف بها الشباب شغفاً شديداً ، وأخذوا — وما زالوا — يرددون بعضها ألحاناً وطنية يشحذون بها العزائم كلما انغمروا فى الحركات الوطنية .

وظل شوقى فى برجه ينظم فى نواحى الحياة المصرية والعربية والإسلامية ويتأنق فى فنه وهو قابع فى كَرْمته بعيدا عن صخب الحياة وضوضائها ، وقد توافرت له كل عناصر العيش الرخىّ ، فصفا ذهنه ، وانشحذت قريحته ، وفرغ لفنه مستمداً خواطره من عوالم فسيحة الأرجاء ، ليرسلها فى أشعار تُنشَد عنه فى المحافل القومية والمناسبات المختلفة ، حاملة طابع المعلم الفيلسوف الحكيم الذى يرسم للناس المثل العليا . وأحياناً يزف إليهم ذلك فى ثوب ملحة تاريخية ، أو عبرة على ألسن الحيوان والطير ، أو قصص مسرحية . وبذلك سدّ فراغاً كبيراً فى

فنون الشعر العربى . . . أقول ظل شوقى فارغاً لفنه على هذا النحو حتى نهاية العمر .

من أجل ذلك أكبر الناطقون بالضاد شوقى وأحلّوه من نفوسهم المكانة الأثيرة، وبايعه شعراء العربية بإمارة الشعر .

أما حافظ فقد شهد ما شهده زميله من أحداث ، ولكن من مربأ دانٍ . وقد نشأ وترعرع فى ظلال البؤس والمتربة ، فأحس بمرارة الحرمان منذ صباه ، وطلع حسه أول ما طلع على جوانب من الحياة قاتمة .

وقد شدّ شوقى فى مؤتنف حياته رحاله إلى أوربا فنهل من معارفها ، وكان لهذا صداه المدوّى فى فنه . أما حافظ فقد سافر إلى السودان فى فجر حياته العملية فعانى فيه الكثير من لأواء العيش وقسوة الحياة ولفْح الرياح وقيظ الهاجرة ، ولم تقع عينه هناك إلا على رماله وبطحائه ، وأحس فيه بظلم المستعمر وطغيانه . وقد ران على نفسه بسبب هذا كله سحب كثيفة من اليأس والتشاؤم ظهر أثرهما فى شعره ، وسرت فيه نغمة حزينة مُغشّاة بالنقمة والبَرَم بالحياة .

ولعل من أهم الفروق بين الشاعرين أن شعر حافظ واضح قريب إلى الأفهام لا يجد الإنسان عناء كبيراً فى إدراك ما يرمى إليه . أما شعر شوقى فالإنسان يجد بعض العناء أحياناً فى فهمه .

ومعنى ذلك أن شعر حافظ ضحل قليل العمق ، تبهرك روعته وتأسرك سطوة ألفاظه، فإن أنت فتشته وجدته خالياً من فحولة المعنى وعمق الفكرة . وسر ذلك — فيما أرى — طبيعة حافظ اليسيرة التى لا غموض فيها ولا التواء . فى حين كان شوقى أكثر عمقاً وأشد خصباً من حافظ . وما أظن أن المقارنة تجوز بين الرجلين فى هذا الباب ؛ فقد اختلفت على شوقى ظروف خلقت منه هذا الشاعر الخصب البارع ، وخلقت فيه هذه الطبيعة العميقة المعقدة . ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : " أما طبيعة شوقى فهى معقدة ينبئنا شوقى نفسه بتعقيدها، فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقى ، فكانت هذه النفس

بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة .. وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع ما يكون الغنى » [١] .

ولقد واتتْ شوقى الظروف ، فتيسّر له أن يُلمّ بقدر ضخم من الثقافات المتنوعة المختلفة الطعوم والألوان ، فقد نهل من مناهل الغرب الفياضة ، وأكبّ على ثقافة العرب فنهل منها كذلك وعلّ ، واختزن فى كنانته محصولا وافراً من مفردات اللغة وأساليبها ، حتى إنه كان يحفظ مواد كاملة من معاجم اللغة العربية كما يقول كاتبه الخاص « أحمد عبد الوهاب »[٢] . وهذا يفسر لنا انتضاح شعره بالألفاظ الغِراب ، كما يلجأ الرجل الثرى إلى اقتناء التحف القديمة يزين بها بيته .

واطلع شوقى كذلك على حوادث التاريخ القديم والحديث فغزُرت عنده الأفكار وغنىَ شعره بالمعانى وانبثّتْ فيه الحكم البليغة . ويقول عنه الشاعر خليل مطران : "فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده، لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب فى لغات الإفرنج والعرب فلسفةَ الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته صنوف الكتب واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب »[٣] .

وقد أكسبته رحلاته الكثيرة وعلاقته الوثيقة بالسراى ألواناً من الثقافات والمشاهد المختلفة لم تُتح لغيره ، وتيسر له الوقوف على الكثير من أسرار السياسة المصرية وتياراتها المتباينة وما يجرى على مسرحها خلف الستار .

ولم يتوافر لحافظ شىء من هذا كله ، لأن ظروفه كانت تختلف عن ظروف صاحبه كل الاختلاف ، وقد شغلته أمور الحياة الدنيا عن كسب

---

(١) حافظ وشوقى لطه حسين ص ١٩٩ .
(٢) اثنا عشر عاماً فى صحبة أمير الشعراء ص ٨٦ .
(٣) ذكرى الشاعرين ص ٤٣٥ .

المعرفة الواسعة . وكل ما ملأ به جعبته ثقافةٌ عربية ضخمة استقاها من أمهات الكتب ، فكظّ حافظته بالمفردات الكثيرة والتعبيرات البليغة والطرف اللطيفة .

ولهذا نجده قد تخلف عن شوقى فى كثير من ضروب القول ، وعجز خياله عجزاً بيناً عن أن يطاول خيال شوقى ، ووقف وقوفاً جامداً عن الابتكار والتجديد . ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى : كانت تنقصه الوثبات القوية الأخاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفنى المتجلية فى شعر شوقى مهما يكن من استجابة حافظ لعواطف الشعب استجابة فطرية »[1] . وصدق الأديب الجليل الأستاذ أحمد حسن الزيات حين قال : « فحافظ لم يستطع — لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته — أن يعنى بغير الشكل والصورة »[2]

وكان حافظ كَلِفاً بتقليد الأقدمين ، يتخذ منهم مثله الأعلى ، ويرى الشعر الجيد فى محاكاتهم ، وهو يصرح بذلك فى مقدمته لديوانه القديم .

أما شوقى فقد أبدى إعجابه بشعر الأقدمين فى مقدمة ديوانه القديم . وفى الوقت نفسه أبدى إعجاباً شديداً بالأدب الأوربى ، وأعلن أنه مجدّد ، وأنه لا يقلد إلا كارهاً ليرضى أذواق الناس .

وكان كلا الشاعرين يُعنى غاية العناية بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، وإن كان شوقى — فيما أرى — أحذق فى ذلك من صاحبه وأوسع حيلة وأكثر توفيقا . ومظهر ذلك أن كلا منهما كان يعيد النظر فى شعره ويبدّل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر كما يرى بغية توفير الجمال لفنه . وكان حافظ — كما يحكى عنه أصدقاؤه — يسمى هذه العملية ( بالتذوق ) ، ويمدح بعض الشعراء بأنه ( ذواق ) . . . يريد بذلك أن له ذوقاً مرهفاً فى اختيار اللفظ والأسلوب . وقد غلا فى العناية بالألفاظ وإيثارها على المعانى غلوّاً شديداً ، لأنه كان يرى أن الإجادة فى الشعر تكون فى طلاوته وروعة سبكه . أما المعانى فهى — فى نظره — مسترَاد مشاع لكل شاعر . ويقول حافظ فى حديث له مع محرر مجلة

---

( ١ ) مجلة أبولو ص ٥٠٠ ( ديسمبر سنة ١٩٣٢ ) .

( ٢ ) فى أصول الأدب ١/١٠٩ .

الهلال : « أنا أميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع »[١] . ويقول عنه صديقه خليل مطران : " إنه فى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى »[٢] .

وليس من شك فى أن إيثار حافظ اللفظ على المعنى قد أوصد أمامه أبواب التجديد ، فوقف من شوقى فى السفح يصعّد إليه النظر وقد تربّع على القمة .

ولعل مبعث عناية حافظ باللفظ أنه كان يخاطب الجماهير ، فكان يتقى القوى الجذاب منها . ولهذا السبب نفسه قلّ الإغراب فى شعره قلة ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

فالشعر كان عند حافظ وسيلة لا غاية ، فى حين كان شوقى يراه غاية وفنّاً يُطلبان لذاتهما .

ومن أسباب عناية حافظ باللفظ أنه كان يحس فى قرارة نفسه بسطحية معانيه وقرب غورها ، فكان يحاول أن يسد هذا النقص بالصياغة الجيدة واللفظ المنتقى .

أما شوقى فكان يحتفل بالمعنى احتفالا شديداً ، إلى جانب احتفاله باللفظ ، وربما كان يؤثر المعنى على اللفظ ويوليه العناية الكبرى . وفى ذلك يقول الشيخ البشرى : « إذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يُعدّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولا ، فإن واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق ، وإلا فلأمّ هذا اللفظ الهبل »[٣] .

ومع ذلك فشعره تتوافر فيه نصاعة الديباجة وجمال الإشراق وروعة الصياغة . وتدل مسوّدات بعض قصائده التى نشرها الدكتور شوقى ضيف على أنه كان يعنى باللفظ والموسيقى عناية بالغة[٤] .

بل إننى أعتقد أن شوقى كان يولى الناحية الموسيقية اهتماماً شديداً ، وكان محصوله الضخم فى اللغة يسعفه فى ذلك . وإلى هذا ترجع صلاحية شعره للغناء

---

(١) مجلة الهلال ( يونيه سنة ١٩٢٨ ) .

(٢) انظر « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

(٣) انظر كتاب ( المختار ) للبشرى ج ١ ص ٨٩ .

(٤) شوقى شاعر العصر الحديث للدكتور شوقى ضيف ص ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

أكثر من شعر حافظ ، إذ يتيسّر للمغنين والملحنين أن يضعوا له الألحان المتنوعة ، فتنساب إلى آذان الناس نغمات رقيقة سرعان ما تجرى على ألسنتهم يتغنون بها فى كل مكان . وأرانى فى غير حاجة إلى أن أسرق الأمثلة على ذلك ، فأغانى شوقى مشهورة طالما صدح بها عبد الوهاب وأم كلثوم .

أما حافظ فلم يُغنّ له — فيما أعلم — إلا قصيدة واحدة ، غنتْ أبياتاً منها أم كلثوم أخيرا وهى : « وقف الخلق ينظرون جميعاً » . على أن هذه الأغنية لم تلق فى عالم الغناء من النّفاق ما وجدته أغانى شوقى .

ولا ريب فى أن بحبوحة النعمة التى كان يرتع فيها شوقى قد أعانته على أن يصوغ من شعره هذا الغناء الذى كان يهز الأسماع ويبهج النفوس ويحوّم بالشعب فى سبحات الفن الرفيع .

وصدق حافظ حين قال فى شوقى يوم أن بايعه بإمارة الشعر :

تمتلكَ ظلالٌ وارفات وأنعُم ... ولينُ عيشٍ فى مصيف ومربع
ومَن كان فى بيت الملوك ثواؤه ... يُنشَّأ على النُّعمى ويمرح ويرتع [1]

ولم يتح البؤسُ لحافظ مثل هذه الفرصة ، فلم يمكنه الحرمان من أن يعزف على مزهر هذا الفن الساحر ، بل شغلته الدنيا بنكباتها قبل أن يلتحق بدار الكتب . ولما أصبح مكفىّ الرزق بالوظيفة دفعه الحرص عليها إلى أن يحيا حياة القلق المستريب ، فاضطربت نفسه وضعفت أعصابه وأصبح يتوهم نفسه مرتعاً للأدواء والعلل .

وكان من أثر الحرمان الذى عاناه حافظ أن قصر خياله عن التحليق عالياً فى سماء الفن ، فجاءت صوره البيانية باهتة قليلة الرواء . أما شوقى فلم يقع ناظراه إلا على فاخر الرياش ونفيس الآنية ، وكان لهذا أثره البين فى خياله وفى اتجاهاته الفنية وفى أوصافه . ولو فتّشْتَ فى شعر حافظ كله لما ظفرت بمثل قصيدة شوقى التى يصف فيها الطبيعة والتى يقول فيها :

تلك الطبيعــة قف بنا يا سارى ... حتى أريك بديع صنع البارى

---

(١) الديوان ١/١١٩ .

الأرض حـــولك والسماء اهتزتا لروائع الآيـــات والآثـــار
ولقد تمـــر على الغدير تخاله والنبتَ مـــرآةً زهتْ بإطـــار
حـــلو التسلسل موجه وخريره كأنامل مـــرّت على أوتـــار
ينساب فى مخضـ لّة مبتـــلّة منسوجة من سندس ونضار (١)

ولا تجد فى شعر حافظ كله مثل أبيات شوقى التى يصف فيها الجزيرة على الجانب الغربى من النيل والتى منها :

وخميـــلة فوق الجزيرة مسّها ذهبُ الأصيل حواشياً ومتـــونا
كالتبر أفقا والزبرجـــد ربوة والمسك تربًا واللجين معينـــا
وقف الحيا من دونها مستأذناً ومشى النسيم بظلها مأذونـــا
وجرى عليها النيل يقذف فضة نـــثرًا ويكسر مرمرًا مسنونا
يُغرى جـــواريه بها فيجئنها ويُغـــيرهن بهـــا فيستعلينا
راع الظلامُ بها أوانسَ ترتمى مثل الظباء من الربى يهوينا
يخطرن فى ساح القلوب عواليًا ويملْن فى مرأى العيون غصونا
عفْن الذيول من الحرير وغيره وسحبن ثَمّ الآس والنسرينا (٢)

ولا شك أن هذه الصور الرائعة يظهر فيها أثر البيئة الناعمة المترفة التى عاش فيها شوقى .

وأبلغ ما يوصف به شعر شوقى أنه — كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات — : « ينقله عن طبع دافق وحس صادق وذوق سليم وروح قوى ، فيأتى به مطرد السلك محكم السبك كمنضود الدهر وأفواف الوشى ، لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تجوّز ولا قلق » (٣) .

وقد كانت حياة حافظ القلقة المضطربة سببًا فى أن يقول شعرًا فيه ممالأةٌ للإنجليز وتأييدٌ لسياستهم وتحطيمٌ لأسلحة الجهاد وبثٌّ لعوامل اليأس فى نفوس

---

(١) الشوقيات : ٢/٤٣ .
(٢) الشوقيات : ٢/١٧١ .
(٣) فى أصول الأدب ١/١٠٠ .

المصريين ، وغير ذلك مما تبرأ منه الوطنية . وقد أساء حافظ بذلك إلى نفسه وإلى وطنه وقومه، واعتُدّ هذا فيه غميزة شنعاء يذكرها له التاريخ على مر الأيام . وأشعاره التى يمكن أن تدخل فى عداد الشعر الوطنى بشىء من التجاوز ضيقةُ الحدود ، ولا تعدو أن تكون تسجيلا لما يردده الناس فى المجالس والأندية ، ثم إنها ليست ذات نهج مرسوم .

أما شوقى فإنه لما رجع من منفاه بعد الحرب العالمية الأولى اختلط بالشعب واندمج فيه وشاركه عواطفه وميوله وأصبح المعبر الأكبر عن آمال مصر وآلامها وبخاصة فى ظروفها الأخيرة . ولم يقف عند تناول أحداث مصر ، بل تناول أحداث الشرق كله ، وغدا المترجم عن مشاعر الشرقيين . وأخذ يعزف على قيثارة الشعر نغمات متنوعة الألوان حول العروبة والشرق والإسلامية « Islamisme » بمعناها الواسع فأجاد العزف ، وأصبح شعره فى هذه المعانى نماذج سامية للشباب المتحمس،فضلا عن أنه يدل على أن الشاعر كان شديد الغيرة على وطنه عميق الإحساس بشعور الأمة المصرية بخاصّة والأمة العربية والعالم الإسلامى بعامّة . ولم يكن شوقى « بمعزل عن الأمة فى شعوره ، لا يخامرها بعطفه ولا تخامره بعطفها ولا يناضل فى ميدانها نضال من يهمه النصر والهزيمة » كما يقول الأستاذ عباس العقاد[١] ، بل إنه كان لسانها الصادق والمترجم عن شعورها والحافز لهممها والمستلّ لعوامل اليأس والاستكانة من نفوسها والمفاخر بآثارها والمنافر بأمجادها ، وبخاصة بعد أن عاد من منفاه واندسّ فى غمار الشعب .

وكان شوقى يؤمن بمذهب ( الإسلامية ) ، ويرى أن المسلمين يجب أن يستووا أمة واحدة متحدة الكلمة ليستعيدوا مجدهم الداثر وعزهم الغابر . ولهذا نراه ينتفض بنشوة الأمل الفوّار حينما أحرز الترك النصر فى حربهم مع اليونان سنة ١٩٢٢ على يد « كمال أتاتورك » ، فقال قصيدته المشهورة :

الله أكبر كم فى الفتــح من عجب ... يا خالد التركِ جدّدْ خالد العرب[٢]

---

( ١ ) شعراء مصر ص ١٨٥ .

( ٢ ) الشوقيات : ٤٨/١ .

ولكن أستاذنا طه حسين يقول إنه امتا ضحكاً وأسًى حين قرأ هذه القصيدة لأنه يعجب « من ذكر خالد ومقارنة مصطفى كمال به حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين فى الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين فى الانتصار والانهزام تملأ النفوس إعجابا »[1] . ويرى أستاذنا أن هذا دليل على إغراق شوقى فى التمسك بالقديم ويقول : « والحق أنا لا نعرف أمدح شوقى مصطفى كمال حين قرنه إلى الفاتح العربى القديم أم ذمه ؟ » .

وإنى لأخالف أستاذنا فيما ذهب إليه كل المخالفة ، لأنى أعتقد أن شوقى يعبر عن شعور عميق كان يختلج فى نفوس المسلمين جميعاً حين شعروا بمرارة الضعف والذلة تحت سنابك الاستعمار ، فأخذوا يستعرضون أمام أبصارهم ما كان للإسلام من سؤدد ومجد فى غابر الأزمان ، ويذكرون الإمبراطورية الإسلامية القديمة التى دانت لها الدنيا وجثا أمام خلفائها الأباطرة والملوك ، ويذكرون إلى جانب ذلك أبطال المسلمين الذين ملئوا سمع الدنيا من قواد وحكام . فإذا ما ظهر من بين المسلمين فى العصر الحديث من يصل ماضيهم بحاضرهم ويذكّرهم ببطولة أجدادهم انبثق فى نفوسهم فجر الأمل وتبددت منها دياجير اليأس . فشوقى فى الواقع مسلم بأوسع ما يفهم من هذه الكلمة من معنى .

أما حافظ فقد أخلد إلى السكوت بعد أن ظفر بالوظيفة ، وخُيِّل إليه أنه إذا قال شعراً قُذف به إلى قاع السجن ، أو أصيب فى منصبه على أهون تقدير . وقد قال فى هذه الفترة شعراً قليلا عدّه فى نطاق الشعر الوطنى وخشى أن يذيعه فى حينه ، حتى إذا أمن الأذى — كما كان يتوهم — أذاعه ، فإذا به شعر لا يؤاخذه عليه أى إنسان .

ولشوقى نفحات فنية رائعة فى مناسبات وطنية ، لم يستطع حافظ أن يدانيه فيها ؛ فقد اعتدى أثيم على الزعيم سعد زغلول فى محطة القاهرة ، ولكن عناية الله نجّته ولم تصب الرصاصة إلا ذراعه ، فنظم حافظ فى هذه المناسبة سبعة أبيات هزيلة متهافتة ، وقد أخذ يكرر الشطر الأول من البيت الأول ثلاث مرات ،

---

(١) حافظ وشوقى ص ٢٥ .

وإنى لذاكرها لك لتدرك بذوقك مبلغ تهافتها :

أحمـــد الله إذ سلمْتَ لمصر ... قد رماها فى قلبها من رماكا
أحمـــد الله إذ سلمت لمصر ... ليس فيها ليوم جدّ سواكا
أحمـــد الله إذ ســـلمت لمصر ... ووقاهـــا بلطفـــه من وقاكا
قد شُغلنا يا (سعد) عن كل شىء ... وشُغلنا بأن يتم شـــفاكا
فى ســـبيل الجهـــاد والوطن المحـــ ... ـبوب ما سال أحمراً من دماكا
قل لذاك الأثيم والفـــاتك المفـــ ... ـتون : لا كنت ، كيف ترمى السماكا
إنمـــا قد رميتَ فى شخص (سعد) ... أمـــةً حـــرة فشلّت يـــداكا

وأنت ترى أن هذه الأبيات كانت — كما يقول الأستاذ حسن الصيرفى — : « كهبة النائم إثْر سهر مضنٍ ، فهو يفتح عينيه فى تثاقل وتراخ ويتحدث فى تثاؤب وتكاسل . وكذلك كانت أبياته ، عليها من أثر الجهد والإعياء ما عليها ، فهى هزيلة شاحبة متهالكة »[1] .

أما قصيدة شوقى فى هذه المناسبة فقد جاءت آية من آيات الفن الرائع . فهو يعرض علينا الصورة فى ألوان زاهية أخاذة ، إذ يشبّه مصر بسفينة ربانها سعد ، وقد سارت السفينة فى بحر تصطخب أواذيُّه وتتلاطم أمواجه ، وقد أخذت ركّابها نشوةٌ بنجاة ربانها من خطر كاد يحدق به وبهم ، فطفقوا يهللون جذلين ، يدقون طبول الفرح متصايحين بأنغام البشرى والسرور .

وتبدو براعة شوقى فى أنه أخذ يوفر لفنه عنصر الموسيقى التى تتلاءم مع الصورة البيانية كل التلاؤم . فأنت تحس إذ تستمع إلى القصيدة كأن هناك أمواجاً تمور من حول السفينة وتلاطمها ، والسفينة تسير فى طريقها قدماً فى أناة ودعة ، لا تلوى على شىء . واسمعه يقول فى مطلعها :

نجـــا وتمـــائل رُبانهـــا ... ودقّ البشـــائرَ ركبـــانهـــا
وهـــلّل فى الجـــو قيدومها ... وكـــبّر فى المـــاء ســـكانها
تحـــوّل عنها الأذى وانثنى ... عبـــابُ الخطوب وطوفانهـــا

(١) حافظ وشوقى للأستاذ الصيرفى ص ٥٥ .

نجا « نوحها » من يد المعتـــدى وضـــلّ المقاتلَ عدوانها[1]

ويقول منها :

فيا سعد جرحك ساء الرجـــال فلا جُرحت فيك أوطانهـــا

فيا سعد أنت أمين البـــلاد قد امتـــلأت منك إيمانهـــا

ويقول مبتهجا بنجاة الزعيم :

وقى الأرضَ شرَّ مقـــاديره لطيفُ السماء ورحمـــانها

ونجّى الكنـــانة من فتنـــة تهـــدّدتِ النيـــل نيرانهـــا

ويقول فى ( النيل ) حياة مصر :

ومـــا هـــو ماءٌ ولكنـــه وريد الحيـــاة وشريانهـــا

تتيم مصر ينـــابيعه كما تيم العـــين إنسانهـــا

والقصيدة كلها عذبة الموسيقى ، غنائية الألفاظ ، حلوة الجرس . وقد ساعد ذلك بعضَ المغنين على أن يضعوا لها الأنغام الجميلة ، وغنت السيدة ( أم كلثوم ) أبياتاً منها .

وقد انضمت عذوبة الصوت إلى روعة الموسيقى ، فنجم عنهما أغنية أخاذة ، تلعب بعواطف السامعين وعقولهم .

وليس المجال هنا مجال تحليل للقصيدة وبيان ما فيها من التصوير الفنى البديع والعرض الجذاب الرائع والحجج القوية التى يسوقها ليدحض بها دعاوى الإنجليز ، مما لم يستطع حافظ أن يأتى بمثله فى لاميته « الشعب يدعو الله يا زغلول » .

ولا شك فى أن حافظاً قد تخلف عن شوقى فى هذه المناسبة تخلفاً كبيراً . وربما كان سر ذلك ما ذهب إليه المرحوم الدكتور « أحمد أمين » من أن « خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة . فأما فرح بالطبيعة وفرح بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال فى شعره » .

ولعلك توافقنى على أن الإجادة الفنية التى توافرت لشوقى كانت أثراً من

---

(١) الشوقيات : ١/٣٢٩ .

آثار الشعور الحاد ، ومظهراً من مظاهر الحس القوى والعاطفة الرقيقة والخيال الخصيب .

ولما هم الملك ( فؤاد ) بإصدار الدستور أنشد حافظ بين يديه قصيدة أثناء زيارته لمدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران ، وقد عرض فيها للدستور والبرلمان ونظم شوقى قصيدته العصماء ( قفى يا أخت يوشع ) وعرض فيها للدستور والحياة النيابية كذلك . ولكن الفرق كبير جداً بين القصيدتين ؛ فقصيدة حافظ لا تجد فيها معنى قيماً أو فكرة عميقة أو صورة رائعة ، وإنما هى كلها طرق من التعبير قد سئمها الناس ومجّها الآذان ، ولا تجد فيها إلا كلمات منظومة يتلو بعضها بعضا ولا تدل إلا على معانيها اللغوية ليس غير . فهو يستهل قصيدته مخاطباً قصر الزعفران :

أقصر الزعفران لأنت قصر ... خليق أن يتيه على النجوم
كلا عهديك للأجيال فخر ... وزهوٌ للحديث وللقديم
ثوى بالأمس فيك عُلا ومجدٌ ... وأنت اليوم مثوى للعلوم
فمن نُبل إلى مجد أثيل ... إلى علم إلى نفع عميم
أضفتَ إلى صروح العلم صرحاً ... بزورة ذلك الملك الحكيم[1]

فأنت ترى أن هذا نظم ليس فيه جمال وليست فيه روعة . والقصيدة كلها من هذا الشعر السوقى الذى لا يستثير من نفسك ذرة من إعجاب . وقد استوقفنى بيت فيه مبالغة أفسدها الشاعر بسوء أدائه ؛ فإنه أراد أن يصف نهوض مصر بعد طول رقاد فقال :

أفقنا بعد نوم فوق نوم ... على نوم كأصحاب الرقيم

فما هذا النوم المتتابع الذى مسخ البيت مسخاً ؟ إن هذا البيت يذكرنا — كما يقول أستاذنا طه حسين[2] — بالبيت القديم :

فما للنوى جذّ النوى قطع النوى ... كذاك النوى قطّاعة لوصّالى

---

(١) الديوان ١/١٠٦ .
(٢) حافظ وشوقى ص ١١٠ .

وقد سمع الأصمعى هذا البيت فقال ساخراً : لو سلط الله على كل هذه النوى شاة فأكلتها » .

ويشيد الشاعر بما للملك من فضل فى إصدار الدستور فيقول :

أيأذن لى المليك البَرُّ أنى ... أهنئ مصر بالأمر الكريم
فيا مصر اسجدى لله شكراً ... وتيهى واقعدى طرباً وقومى
فقد تمّ البناء وعن قريب ... تُزفّ لك البشائر من نسيم
فدار (البرلمان) أعز دار ... تشاد لطالب المجد العميم
بها يتجمل العرش المفدّى ... وتحيا مصر فى عيش رخيم
فشرّفها بربك واختتمها ... وأسعدها بدستور تميم
بآى (محمد) وبآى (عيسى) ... فعوّذه وآيات (الكليم)

هكذا عرض حافظ للدستور وللبرلمان بما لا يخرج عن أداء العامة وقَعَدة (المصاطب) من أنصاف المتعلمين . وقد زاد القصيدة ضعفاً وابتذالا أن قوافيها غير مستقرة فى مواضعها ، فأغلبها قلق مضطرب لم يأت الشاعر به إلا ليختم البيت ليس إلا ، من مثل « ظهور الأديم) و (المجد العميم) و (عيش رخيم) و (دستور تميم) ، وأشباه ذلك من القوافى التى أُكرهت على أن تستقر فى غير مكانها المناسب .

أما قصيدة شوقى (قفى يا أخت يوشع[1]) فهى آية من آيات الروعة والجمال ، فقد أحسن شوقى تناول المعانى وأحسن الأداء . وقد أراد الشاعر أن يبين أمرين اثنين :

أولهما أن لتاريخ مصر القديم مجداً وعظمة لا تتطاّ إليهما أمة أخرى من أمم الأرض .

وثانيهما أن تاريخ مصر الحديث فقير إلى هذا المجد وإلى هذه العظمة ، قمينٌ بأن يُسعى لاسترادهما .

وبهذا يشعر كل مصرى ، وبهذا كان يشعر شوقى ويحس .

---

(١) الشوقيات : ١/٢٣٤ .

والقصيدة معروفة مشهورة ،ولست أرانى فى حاجة إلى أن أسوق لك نماذج منها . وقد عرض فيها شوقى لتاريخ مصر الفرعونية عرضاً أخاذاً . وشوقى يمتاز بفرعونياته التى يبثّ فيها اعتزازه بمجد الفراعنة العظام . وفى ذلك ردٌّ بليغ على من يرميه بنزوعه عن مصريته . ويكاد شعر حافظ يخلو من مثل هذه الفرعونيات تقريبا ، اللهم إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » ، وقد تحدثنا عنها فى فصل سابق .

ولعل من أروع ما فى قصيدة شوقى أنه يبسط أمام الشباب تاريخ بلادهم العتيد ، ثم يرسم لهم طريق الخلود ويحفزهم على الاقتداء بأجدادهم الفراعنة :

وليس الخلد مرتبة تُلقّى ... وتُؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى همم كبار ... إذا ذهبتْ مصادرها بقينا
وآثار الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذُكَ من فم الدنيا ثناءً ... وتركُك فى مسامعها طنينا

ولم ينس الشاعر أن يعرّض بسياسة الإنجليز ، ويكشف ألاعيبهم ، ويبين مبلغ ظلمهم ، ويستحث المصريين على استنقاذ وطنهم من براثن المحتلين .

وتذوب نفسه حسرات على ما بلغنا من ضعف حدا بالمؤتمرين فى (لوزان) عقب الحرب العالمية الأولى إلى أن يوصدوا فى وجوهنا أبواب المؤتمر وألا يُصيخوا لمطالبنا . ولو كنا موفورى الأهبة والعتاد لما وجدنا منهم صلفاً ولا كبراً ، لأن القوة عندهم هى كل شيء . ويذكر الشاعر فى ألم وكمد أن ( كرزون ) وزير خارجية إنجلترا حينذاك يقضى فى أمورنا وليس لنا أمامه حول ولا قوة :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا ... وصدُّوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا نجرّ هناك سيفاً ... وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى ( كرْزنٌ ) بالأمر فينا ... وحاجاتُ الكنانة ما قُضينا

ويتحدث إلى فرعون فيستنطقه ويسأله ويلتمس منه الجواب عن هذه الأسرار التى عجز العقل عن حلها . وهى أسرار الحياة والموت والبعث والنشور .

ويخلص الشاعر من ذلك كله إلى الأمر الذى كان يشغل المصريين جميعاً

فى ذلك الحين ، وهو ( الدستور ) والحياة النيابية . وأنت تراه فى ذلك مصريًّا بكل معنى الكلمة ؛ فهو يحس بما كان يحس به المصريون ويشفق مما كانوا يشفقون منه . وهو يحب الحكم الديموقراطى ويكْلَف به، ويتمنى على الملك ( فؤاد ) أن يصدر الدستور ،وأن يقيم حكما نيابيًّا سليماً . ولم تمنعه صلته بالقصر أن يغمز الملك غمزاً رفيقاً، وأن يعرّض بحكم الفرد الذى مضى إلى غير رجعة :

زمان الفــرد يا فرعــون ولّى ... ودالتْ دولــة المتجــبرينا
وأصبحت الرعاةُ بكل أرض ... على حكم الرعيــة نازلينــا
فعجِّلْ يا ابن إسماعيل عجِّلْ ... وهات النور واهْدِ الحائرينا
هو المصبــاح فأتِ به وأخرِجْ ... من الكهف السوادَ الغافلينــا

وهكذا نرى شوقى مصريًّا صميماً، يعبر عن إحساس المصريين وآمالهم ويعتز بمجد الفراعنة أشد اعتزاز .

ولا نجد شاعراً مصريًّا يشْمح بآثار الأقدمين كما صنع شوقى فى فرعونياته الغراء . وصدق الأديب الكبير المرحوم ( مصطفى صادق الرافعى ) حين قال : « إن قصائد شوقى فى الآثار أعظم من الآثار نفسها وأبقى على الزمان »[1] .

وكان شوقى يقتنص المناسبات ليخوض فى مجد مصر وحضارتها التليدة ، يُمدّه قلب نابض بحب مصر وعاطفة زاخرة بالهيام بها. . . يقول فى مطولته التى أنشدها فى مؤتمر المستشرقين بجنيف :

قل لبــانٍ بنى فشاد فغالى ... لم يجُــزْ مصر فى الزمان بناء
فاعذر الحاسدين فيهــا إذا لا ... موا فصعبٌ على الحسود الثنــاء
زعمــوا أنهــا دعائم شِيدتْ ... بيــد البغى ملؤها ظلمــاء
إن يكن غــيرَ ما أتوه فخارٌ ... فأنــا منــك يا فخار براء

وهو يضرب فى هذه القصيدة على قيثارة الفخر بمصر والإشادة بعظمتها . وأنت تجده فى مواطن كثيرة يذكّر المصريين بسالف مجدهم ويبثّ فى نفوسهم

---

(١) انظر كتاب (وحى القلم) ج ٢ ص ١٤٤ .

الأمل والثقة فى استعادة ما فقدوه حتى يسودوا الدنيا كما كانوا سادتها .

وكان شوقى يغلو فى حب مصر غلواً يدفعه إلى أن يدعو الشباب إلى تقديسها كما يقدسون الله تعالى :

وجْـهَ الكنانة ليس يغضب ربكم　　أن تجعلوه كوجهه معبـودا
وَلُّوا إليه فى الدروس وجـوهكم　　وإذا فرغتم فاعبـدوه هـجودا
إن الذى قسم البـلاد حبـاكمُ　　بلداً كأوطان النجـوم مجيدا
قد كان ــ والدنيا لَحود كلهـا ــ　　للعبقرية والفنـون مهـودا[1]

وكان قلبه يخفق باسم مصر إذا طوّحت به الأقدار بعيداً عنها . وكل مصرى يحفظ أبياته التى قالها والغبطة تملأ قلبه حين آب إلى وطنه من منفاه ، وكنا نرددها ونحن صبية نختلف إلى دور العلم :

ويا وطنى لقيتك بعـد يأس　　كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دُعيت لكنتَ دينى　　عليـه أقابل الحتم المجـابا
أدير إليـك قبل البيت وجهى　　إذا فهتُ الشهادة والمتـابا

ووطنه عنده أثمن من الخلد ، وله فى ذلك بيت أغر مشهور :

وطنى لو شغلتُ بالخـلد عنه　　نازعتنى إليـه فى الخلد نفسى

والمقام لا يتسع للحديث عن وطنيات شوقى . وحسبنا أن نشير فى هذه اللمحة العابرة إلى ما كان بين الرجلين من بون شاسع فى شعر الوطنية . فحافظ كان رسول الاستيئاس ، وشوقى كان باعث الأمل ومحيى ميت الرجاء .

وبعد ، فلا مراء فى أن شوقى كان أعمق وطنية وأحسن أداءً لمعانيها من حافظ . ولم يكن شوقى شاعر مصر فحسب ، بل كان شاعر العرب جميعاً ؛ يبتهج إذا أصابتهم حسنة،ويبكى إذا مسهم الضر، فكلنا فى الهم شرق كما يقول. وما من حادث يحدث فى أى قطر عربى إلا ألفيتَ لذلك صدى عميقاً فى نفس شوقى ؛ يتأثر به كأنه وقع على شخصه ، وينطلق مدافعاً عن المظلوم ، راثياً للمحزون ، مشاركاً فى النكبة ، مواسيا المنكوبين .

(١) الشوقيات : ١/١٢٥ .

وكان شوق الشاعر الذى يملأ نفسه مجدُ العرب، يردّده دائماً فى تيه وتخيلة. وكان يؤوده ما يراهم فيه من انحلال وتفكك وضعف . . . كان يذكر ذلك حتى فى قصائده التى نظمها فى مناسبات لا تمت إلى العروبة بسبب[١] .

وكان لا يفتأ يُهيب بالعرب أن يطرحوا الخلاف جانباً ، وأن يستعيدوا عصر الرشيد والمأمون وصلاح الدين . وهو لا ينسى فى مقدمات كثير من قصائده أن يشيد بأمجاد العرب وصناديدهم وأبطالهم وملتهم السمحاء . وبلغ به الحرص على تخليد مجد الإسلام والعرب أن وضع له جزءاً خاصًّا ، هو « دول العرب وعظماء الإسلام » ، وقد أشرنا إليه فى فصل سابق .

وهناك أمر له أثره فى المقارنة بين الشاعرين ؛ ذلك أنك لا تجد لحافظ شأناً يذكر فى ميدان المسرح والتمثيل ، اللهم إلا هذه المنظومة التمثيلية التى أنشأها بمناسبة ضرب الأسطول الإيطالى لمدينة بيروت سنة ١٩١٢ . وقد أجرى حوارها بين جريح وزوجته وطبيبه وأحد مواطنيه العرب[٢] . وهى رواية ليست شيئاً يُعتدّ به فى عالم المسرح ، إذ لم تتوافر فيها العناصر الأصيلة للتمثيلية. فهو يُجرى الكلام على لسان الجريح فى عشرات الأبيات التى ليس فيها هذا الحديث السريع المتبادل بين أشخاص الرواية والذى يستشيق السامعين ويسترعى انتباههم.

وأنت تحس فى التمثيلية بتراخ فى الحوار وفتور فى الحركة ، ولا ترى فيها هذا التحليل الدقيق للعواطف المشبوبة التى تختلج فى نفوس الناس ، وليس فيها هذا الاستعراض الخفيف السهل الذى هو من خصائص المسرحية .

فحافظ إذن قد تخلف عن شوقى فى هذا الميدان تخلفاً بيّناً، ولم يخْطُ فيه إلا هذه الخطوة الضيقة .

وما من شك فى أن هناك أموراً صرفت حافظاً عن أن ينظم للمسرح ، وهى أمور تتعلق بثقافته ونشأته وأفقه وبيئته . يضاف إلى ذلك عدم شهوده المسرحيات

---

(١) مثل قصائد : أنس الوجود ، والنيل ، والرحلة إلى الأندلس ، ومسجد أيا صوفيا ، وغيرها .

(٢) الديوان ٢/٦٩ .

العالمية التى شهدها شوقى فى (باريس) إبان الطلب . فقد ذكر شوقى أكثر من مرة أنه كان كثيراً ما يسافر من (مونبلييه) إلى (باريس) ليشاهد تمثيل ساره برنار أمام (كوكلان) الأكبر ، وتمثيل (جان هدنج) و (جبرييل ريجان) وغيرهم .

ولهذا نجد شوقى متأثراً إلى حد كبير بهذه المسرحيات الفرنسية ، ويلاحظ هذا بنوع خاص فى روايتيه (على بك الكبير) و (قمبيز) ؛ فقد تأثر فى نظمهما بروايتى (جان دارك) التى ألفها (جول باربييه Jules Barbier) و (كليو باطرة) التى وضعها (إميل مورو Emile Moreau) .

ويطول بنا الحديث لو عقدنا مقارنة بين هاتيك الروايات لنتبين مبلغ تأثر شوقى بالمسرحيات الغربية التى شاهدها . والأمر الذى أرجحه ويرجحه غيرى من الباحثين فى تاريخ المسرح العربى أن شوقى قد تأثر فى مسرحياته بالمسرحيات الفرنسية أكثر من تأثره بمسرحيات شكسبير كما يدّعى البعض .

كل هذه العوامل التى ذكرنا جعلت حافظاً يشعر فى نفسه بالعجز عن إنشاء التمثيلية المسرحية .

ولا يحق لى أن أختم هذا الفصل قبل أن أعرض لمسألة جديرة بالعناية وهى : كيف كانت العلاقة بين حافظ وشوقى ؟

كان حافظ يؤمن فى قرارة نفسه بأنه شاعر عربى كامل العدة تام الأداة . وكان يرى أن من حقه أن يأخذ مكانه فى ظلال العرش المصرى كصاحبه . فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يُسمع صاحبَ العرش فيصغى إليه ويطلب شخصه ويصطنعه فى حاشيته . ولكن قيثارة أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الأمير وقلبه. فأخذ رجاء حافظ يتضاءل وأيقن أن لا مكان له ولا لغيره فى تلك الظلال ما دام شاعر القصر يكتنف طريقه ويحول بينه وبين الحظوة عند الخديو ، فأخذ يغمز شوقى غمزاً فى بعض قصائده ذاكراً من طرف خفىّ أنه أشعر منه ، مثل قوله من قصيدة نظمها فى تهنئة الخديو بعيد الأضحى سنة ١٩٠٤ :

صُغتُ القريض فما غادرتُ لؤلؤة ... فى تاج كسرى ولا فى عِقد بوران
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدَف ... سامحتُ فيه لنظام ووزّان
عابوا سكوتى ولولاه لما نطقوا ... ولا جرَتْ خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم ... عهد النُّواسى أو أيام حسان
أزفّ فيه إلى العباس غانية ... عفيفة الخِدْر من آيات عدنان
من الأوانس جلاها يراعُ فتى ... صافى القريحة صاحٍ غير نشوان[1]

وله قصائد أخرى مثل هذه فيها تعريضٌ بشاعرية شوقى لا تخفى على فطنة اللبيب .

وقد طمع حافظ فى ظلال أرحب من إمارة مصر ، هى ظلال الخلافة فى الآستانة ، فأخذ يتغنى بمدح السلطان عبد الحميد ، ويذكر فضله وفضل خلفاء آل عثمان فى إقامة ذلك البناء الإسلامى الضخم الذى رفعوه على شفار سيوفهم .

ولكن حافظاً لم ينل شيراً من ظلال الخلافة يتفيّؤه ، وضاع شعره فيها كما ضاع من قبل فى إمارة مصر . ويقال إن اليد التى أبعدته عن بلاط الخديو لم تدعه يظفر بأمله فى بلاط الخلافة ، فسدّت عليه السبيل بعد أن عمل بعض الأصدقاء على تمهيده ، وبعد أن أوشك الشاعر العاثر الجد أن يقع على أمنيته . فغمره اليأس ، ورضى بالبقاء بين سائر الشعب ، يشهد جهاده ، ويندب صرعاه ، ويرثى زعماءه ، فذلك أقرب فنون الشعر إلى قلبه . وكان يرسل النكتة أحياناً يرفّه بها عن نفسه وعن الناس فيعجبون بها ويضحكون ملء أشداقهم . وقد أحسّ الشعب بقرب هذا الشاعر إلى نفسه فأحبه وأدناه ، ورضى الشاعر عن ذلك ووجد فيه عوَضاً عن تنكّر الزمان له .

وزاد من إقبال الناس على شعره ما كان يُضفّيه عليه صاحبه فى إلقائه من نغمة صادقة حزينة . يضاف إلى ذلك ما كان من اتصاله بزعماء الأمة ومؤانستهم بعذوبة محضره وأنس جوه .

---

(١) الديوان ١/٢٨ .

ولست أشك فى أن حافظاً كان يَتَنَفَّس على شوقى مكانته فى القصر وحظه من النعمة والجاه . ولهذا كان يتناوله فى مجالسه الخاصة بالنقد اللاذع والتجريح العنيف . ويقول صديقه المرحوم الأستاذ « دسوقى أباظة » — وكان هو وأسرته على صلة قوية بحافظ — : «وكنت فى العادة إذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقى يثور محاولا أن يثنينى عن الثناء عليه بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى» [١] . ويقول الأستاذ أباظة فى موضع آخر : «وكان إذا خلَوْنا به يحمل على شوقى وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره »[٢] .

على أن حافظاً لم يستطع أن يخفى حقده على شوقى فجهر به جهراً فى كتابه « ليالى سطيح» ، ووجّه إلى أمير الشعراء سهاماً مُصْمية من النقد المر . فشوقى فى نظر حافظ لا يأتى إلا «بتلك المعانى الغريبة التى ما سكنتْ فى معنى عربى إلا وذهبت بروائه[٣] » . وهو — على ما فيه من سعة الرزق — « فارغ للشعر ، غير مشغول بغيره ، فالعجب أنه لا يجيد ، وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . . . ولو مُنح من دقة المبانى ما مُنح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع » ، ولكنه « لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلا سلخه ومسخه . . . فما عسى يكون فخره علينا ؟ [٤] » .

وأخيرا يقول حافظ فى شوقى : « وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره . . . ولقد نظرْتُ فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين . فهو لم يغادر معنى فى خِدْره إلا سباه ولا لفظاً فى وكره إلا أزعجه»[٥] .

---

(١) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٤٣ .
(٢) مجلة أبولو ص ١٣٤٥ .
(٣) ليالى سطيح ص ٤٥ .
(٤) ليالى سطيح ص ٤٧ .
(٥) ليالى سطيح ص ٤٨ .

هذه بعض نفثات الحقد الذى كان يحمله حافظ فى زوايا نفسه لزميله أمير الشعراء شوقى .

وكان شوقى بالتالى يتنفّس على حافظ أمرًا له شأنه ، هو حسن إلقائه لقصائده . وكل من سمعه يُنشد قصائده فى المحافل يذكر مبلغ تأثيره العميق فى الجماهير بحسن إلقائه الخلاب . ويقول الشيخ عبد العزيز البشرى : «ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ . وإن له لصوتا جهيراً فخماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزًّا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات »[١] .

ويقول صديقه المرحوم خليل مطران : «كان حافظ يلقى شعره بأفصح بيان ممكن ، ويضاعف قيمته بحسن إنشاده »[٢] .

وكان الأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد يعجب بحسن إلقاء حافظ ولباقة صوته وسحر إيمائه ، وقد قصّ علينا الكثير عن مقدرة حافظ فى هذا الباب ، وذكر أنه قال له ذات مرة : «إنك بأن تملأ قوالب الحاكى أحرى منك بطبع صفحات الدواوين » ، فكان — رحمه الله — يضحك ويقول : وتكون أنت "عقادى" على تخت الغناء »[٣] .

ويقول المرحوم الأستاذ دسوقى أباظة فى سحر إلقاء حافظ : أىّ أديب لم يُهرَع إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع وإلقائه الخلاّب الذى كان يدوّى بين الجماهير فيضم سحراً وفخامة جديدين إلى ديباجته الساحرة الفخمة »[٤] .

ويذكر الشاعر الأستاذ أحمد رامى أن شوقى كان ينظر إلى حافظ بعين مغيظة بسبب « حسن إلقائه الذى كان ينتزع من الجماهير التصفيق والإعجاب.

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .
(٢) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٥) .
(٣) شعراء مصر ص ١٥ .
(٤) مجلة أبولو ص ١٣٤٣ .

فى حين أن شوقى كان يعجز عن إلقاء قصائده . يضاف إلى ذلك أن حافظاً كان يملأ المجالس بهجة وأنساً . أما شوقى فكان خاملا فى مجالسه ، يغلب عليه العىّ »[1] .

وما من شك فى أن شخصية حافظ ، وما طُبع عليه من سرعة الخاطر وحضور البديهة والقدرة على اقتناص النكتة البارعة ، ثم ما مُنح من جهارة الصوت وحسن الإلقاء ولباقة الإيماء ، مع بسطة فى الجسم ومتانة فى البنيان — كل ذلك كان له شأن ليس باليسير فى جذب الأسماع إليه وإعجاب الناس به وإقبالهم عليه .

ومن الغريب أن حافظاً — مع قدرته على حسن الإلقاء — لم يجرؤ مرة واحدة على أن يقف بين الناس خطيباً . وإذا أقيمت له حفلات التكريم كان صديقه مطران يمهد له بإلقاء كلمة ، ثم يقف هو ليلقى ما أعدّه من القريض ، فيطرب الجمهور الذى يصفق له إعجاباً ، وكأنه سمعه خطيباً .

• • •

أما بعد ، فهذه كلمة موجزة فى المقارنة بين الشاعرين الكبيرين تضاف إلى ما ذكرناه عنهما فى الفصول السابقة . وأظنك قد التقطتَ صورة واضحة المعالم لكل من الشاعرين ، وأدركت الفنون التى برّز فيها كل منهما وبزّ صاحبه ، وأرجعت ذلك إلى علله الصحيحة التى ترجع إلى النشأة والثقافة والاستعداد الفكرى .

وما من شك فى أن ثقافة حافظ العربية الخالصة قد حالت بينه وبين الابتكار والتجديد . وقد حاول أن يجدد ، ولكن لم تسعفه ثقافته ولا مواهبه كما أسعفت زميله شوقى ، هذا الشاعر الذى سار قدما فى طريق التجديد ، ولم يَحفِل النقد المر الذى وُجه إليه من شانئيه بينه وبين المضىّ فى سبيله . وبذلك حقق للشعر العربى ما لم يكن يخطر على بال أحد . ولهذا اعتبره بعض مؤرخى

(١) مجلة المصور عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

الأدب العربى من رجال الطبقة الأولى بين شعراء العربية ، واعتدّه البعض أعظم شاعر ظهر بين العرب فى جميع العصور .

وكان شوقى يشعر بعبقريته ويحس بجلال قدره ؛ فكان يشبه نفسه تارة بالبحترى .

إن الذى قد ردّهـا وأعادها ... فى بردتيك أعاد فنّ البحترى

وتارة بأبى نواس وتارة بأبى تمام وتارة بالمتنبى :

ولى درر الأخلاق فى المدح والهوى ... وللمتنبى درّةٌ وحصاة

وكان كلِفاً بمعارضة الفحول كما صنع مع البحترى والبوصيرى وابن زيدون . وقد عارض أيضا عينية ابن سينا .

وكان شوقى يحب أن يعرف الناس قدره وأن يولوه ما هو خليق به من التقدير والإعظام . ولهذا كان يحب الثناء ، ويفرّق من النقد ويضيق به ، حتى لقد قيل إنه كان يختصم من يتعرض لنقده .

ومن عجب أن الأستاذ العقاد لا يعترف لهذا الشاعر الفذ بسبق أو نبوغ ، . فهو يرى أنك لو قرأت شعره كله « وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنساناً اسمه ( شوقى ) يخالف الأناسى الآخرين من أبناء طبقته وجيله لأعياك العثور عليه . ولكنك قد تجد هنالك خَلْقاً تسميهم ما شئت من الأسماء، وشوقى اسم واحد من سائر هذه الأسماء »[١] .

ولكنى أخالف الأستاذ الكبير فى ذلك كل المخالفة ، وأرى أن شوقى ذو شخصية متميزة واضحة الجوانب . وأنت حين تقرأ مطولة من مطولاته تشعر بهاتف يصيح من أعماق نفسك : هذا هو شوقى .

فشوقى فى الواقع قد جمع بين طبيعة الشاعر الفنان وطبيعة الشاعر المثقف الذى يستعين بالعقل إلى جانب الإحساس الدقيق فى رسم الصورة .

والحق أن هذا الشاعر العظيم قد أقام وحده للعربية سوقاً عرض فيها ألواناً من غذاء العقل والروح معاً . فقد أنقذ الأغانى من ابتذالها وفسولتها ، وجعلها

---

(١) شعراء مصر ص ١٥٦ .

شعراً حيًّا يمسّ شغاف القلوب ويحرّك المشاعر ويبعث الهمم . ووضع للأطفال أقاصيص شعرية كانت خير ملهاة وأعظم مثقف لهم . وأخرج روايات تمثيلية لا عهد للعربية بها من قبل . . . وغير ذلك من ألوان الشعر وضروبه .

وبذلك فند مزاعم القائلين بعقم اللغة العربية وقصورها وعجزها عن مسايرة اللغات الحديثة .

ونحن لا ننكر أنه كان لحافظ بعض المزايا التى تحدثنا عنها بالتفصيل فى فصول سابقة . ولكن المزية — كما يقول أصحاب المنطق — لا تقتضى الأفضلية .

وإنى لأختم هذا الفصل بكلمة قيمة للدكتور طه حسين فى الشاعرين الكبيرين يقول فيها : «وشوقى لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ،ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان .

« لم يبلغ شوقى من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة وأغنى منه مادة وأنفذ منه بصيرة وأسبق منه إلى المعانى وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضا . ولشوقى فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشئ الشعر التمثيلى فى اللغة العربية .

« يلتقى الرجلان فى كثير ، ويفترق الرجلان فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظًّا فى إقامة مجدنا الحديث »[1] .

---

(١) حافظ وشوقى ص ٢٢٣ .

## ٢

## كتب حافظ

يجدر بنا قبل أن ننتهى من الحديث عن حافظ أن نسوق لمحة خاطفة عن الكتب التى تركها ، وعن نثره وما يمتاز به وتلك الكتب هى :

(١) ديوان شعره ، وقد طبع ثلاث مرات . وخيرها الطبعة الأخيرة (سنة ١٩٣٧) التى أشرف عليها المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه .

(٢) البؤساء Les misérables وهى رواية ألفها شاعر فرنسا الأكبر فكتور هيجو (Victor Hugo) ، وترجمها إلى العربية شاعرنا حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ . وقد تحدثنا فى فصل سابق عن السبب الأكبر الذى حدا بحافظ إلى ترجمة هذا الكتاب ، وهو أنه يصوّر جانباً حيًّا من جوانب نفسه ، جانب البؤس والشقاء . فقد ألمّ بحياة البائسين الأشقياء . . . وضعه بائس وعربه بائس كما يقول حافظ .

وهناك أمر خليق بالنظر وهو أن حافظاً يذكر أن كتاب (البؤساء) خير ما أخرج (هيجو) للناس وهذا مما دعاه إلى ترجمته . ولكن هذا الكتاب فى الواقع ليس خير كتبه ، ولا تستطيع أن تلتمس فيه شخصيته القوية وعبقريته الفذة . ولو اقتصر قارئ على هذا الكتاب ليستكنه شخصية هذا الأديب العظيم لزعم أن (هيجو) ليس له هذا النبوغ الذى اختلب العقول .

فالبؤساء كتاب كغيره من الكتب ، ليس فذًّا فى بابه ولا فى فكرته ، كتابٌ فيه الحسن وفيه القبيح ، فيه كلام قيّم وفيه إطالة لا غناء فيها .

ولا ريب فى أن حافظاً قد وجد فى هذا الكتاب شيئاً من الراحة والعزاء ، لأنه يرى فيه أناساً غيره فى المجتمع البشرى يعانون من ضروب البؤس أشد مما يعانى وأقسى .

ولعل أهم ما يستوقفنا فى كتاب (البؤساء) الأسلوب العويص الذى قد يستغلق فهمه على العقول . فهو أسلوب بدوى خالص ملىء بالألفاظ الغريبة . . . قد تعجبك جزالته وقد تأسرك رصانة تراكيبه ، ولكنك تشعر بأنك تقرأ لكاتب يعيش مع الفرزدق وذى الرمة ورؤبة أيام كانت اللغة لغة الصحراء يصنعها الحُداة والماتحون ولا تنطق بها إلا الأشداق الواسعة العريضة والشفاه الضخمة الغليظة التى تحسن وصف الجواد بأنه « عظيم السليل ، سُحير ، أدكّ ، أهْنع ، وهو إن لم يكن أصيلا كان عَصَلْباً »[1] كما ذكر حافظ فى بؤسائه .

ولعل حافظاً قد أحس بوعورة هذا الأسلوب فقام بشرح ألفاظه الصعبة للقراء فى آخر طبعة شهدها سنة ١٩٢٣ .

ولا شك فى أن حافظاً قد عنّى نفسه فى تخير هذه الألفاظ الشاردة . وما كان أخلق حافظاً بأن يتوخّى أسلوباً سلساً يجمع بين الجزالة والرقة كما كان يصنع غيره من كتاب العصر الحديث لتقوى الآصرة بينه وبين قرائه . وما أظن إلا أن كل مؤلف يُهمّه أن يشيع علمه بين الناس وأن يذوقوا أدبه فى سهولة ويسر ، لا أن يسلك بهم دروباً مظلمة يضلّون فى حنادسها فلا يعرفون أيمانهم من شمائلهم .

وهناك غميزة أخرى بلقاء اغتمزتها فى حافظ . . . تلك أنه لم يكن دقيقاً فى ترجمته للكتاب ؛ فهو يلخص ولا يترجم . وأنا لا أدرى سر ذلك ، وأكاد أعزوه إلى أنه لم يكن يحسن الفرنسية إحساناً تامّاً ، ويقول أستاذنا طه حسين : « كان حافظ يلمّ بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً »[2] .

وقد تصفحْتُ النسخة الفرنسية ذاتها ، وقارنتُ بعض صفحاتها بما يقابلها فى الترجمة فألفيتُ البون شاسعاً بين النصّين . وأنا لا أريد أن أتهم شاعرنا الكبير بعدم الأمانة فى النقل ، ولكنى أحب أن أقول إنه لم يعطنا صورة صادقة لما كتبه (هيجو) فى بؤسائه . وهذا — فيما أرى — من أشد الأمور خطراً على الأدب

---

(١) البؤساء ٢/٥٢ طبعة مطبعة (أبو الهول) .

(٢) حافظ وشوقى ص ١٩٦ .

والعلم، فليس للترجمة قيمتها حقًّا إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل فى أسلوب ممتع جذاب .

وقد لاحظت أن حافظاً قد ترك الصحيفة الأولى برمتها من الكتاب ولم يُشر إليها بحرف واحد . وليس من المعقول أن يكون ذلك ناجماً عن السهو أو الخطأ المطبعى .

(٣) « ليالى سطيح » وقد ألفه حافظ فيما بين سنتى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ وحذا فيه حذو المرحوم الأديب « محمد المويلحى » فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » . فهو عبارة عن مقامة نقدية اجتماعية بثّ فيها حافظ خواطره وآراءه فى الأدب والسياسة والمجتمع المصرى ، ووصف فيها حال مصر وهى ترزح تحت نير المستعمرين ، وندّد بأعمال الإنجليز ولكن فى شىء من الحذر والترقب .

(٤) « كتيب فى التربية الأولية » ترجمه حافظ عن اللغة الفرنسية بتكليف من وزارة المعارف ، وقامت بطبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٢ . ولم يجد حافظ فى ترجمته لهذا الكتاب العسر والمشقة اللذين وجدهما فى ترجمته للبؤساء ؛ لأن لغته الأصلية سهلة لا تكلف المترجم كثيراً من العناء .

(٥) « الموجز فى علم الاقتصاد » ، وقد ندب المغفور له « أحمد حشمت باشا » وزير المعارف إذ ذاك الشاعرين الكبرين حافظ إبراهيم وخليل مطران لتعريب هذا الكتاب وتولت طبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٣ . ومن غريب الأمر أن يترجم الشاعر حافظ إبراهيم كتابا فى الاقتصاد وهو رجل مبسوط اليد ، لا يعرف إمساك النقود ولا ضبط المعدود . فقد كان سخيًّا سخاء لا حد له ، يصادفه المعترّ فيعطيه كل ما فى يده ولو كان به خصاصة ، « ولو ملك الدنيا كلها لفرقها فى يوم واحد » كما يقول المرحوم الدكتور أحمد أمين[1] ، وكان زميله مطران آية فى الكرم والإيثار .

وقد أحسن حشمت باشا الاختيار حين ندب هذين الأديبين لهذا العمل . فمطران كان متمكناً من الفرنسية خير تمكن ، وحافظ كان بحراً طامياً فى العربية .

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٧ .

ويقولون إن مطران هو الذى حمل العبء الأكبر من الترجمة . أما حافظ فكان له بعض المشاركة فى صوغ الأسلوب العربى ، ويذكر بعضهم أنه لم يُسهم فى ذلك إلا بمقدمة الكتاب فقط .

والمعربان يذكران أنهما لاقيا فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق حتى لقد حدثتهما نفساهما بالنكوص والتوقف ، ولكنهما مضيا فى الشوط إلى غايته وفى الطريق إلى نهايته ، حتى حال العناء إلى لذة وانقلب الإحجام إلى إقدام كما يقولان[1] .

وربما كان أهم ما أزجاه هذان الشاعران للعربية من ترجمة كتاب فى ( الاقتصاد ) أنهما وضعا ألفاظاً عربية للمصطلحات الفرنسية فى هذا العلم الذى كان جديداً على لغتنا فى ذلك الحين ، وبذلك زوّداها بكلمات جديدة . وقد أُسيغت بعض مصطلحاتهما وأخذت طريقها إلى الاستعمال ، وجَمُد بعضها مكانه وحل محله ما كان أخف دوراناً على الألسن . ولكنهما على كل حال قد نهضا بالمهمة بقدر ما استطاعا واستحقا جزيل الشكر .

* * *

هذه هى الكتب التى تركها حافظ ،وقد لاحظت فى كتاب «البؤساء» أنه التزم الأسلوب المرسل الذى لا يتقيد بالسجع والمحسنات البديعية إلا قليلا ، ولكنه أسرف فى اختيار حوشى الألفاظ وغريبها .

أما أسلوبه فى « ليالى سطيح » ففيه عناية بالزخارف البديعية إلى جانب الاهتمام بالغريب . وهذه الخصيصة ظاهرة فى أساليب كتاب ذلك العصر من أمثال الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى وإبراهيم اليازجى وغيرهم . وكان شوقى أمير الشعراء ينحو هذا النحو العتيق فى كتابته . وأنت تجده فى كتابه ( أسواق الذهب ) يبذل أقصى الجهد فى تزيين أسلوبه بالمحسنات البديعية وبخاصة السجع والازدواج ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ للقاضى الفاضل فى القرن السادس الهجرى . وتراه يلتزم هذه الطريقة فى المقدمات التى يقدم بها قصائده

(١) انظر مقدمة كتاب الموجز .

الكبرى ، كقوله فى مقدمة قصيدته السينية « الرحلة إلى الأندلس » :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها ، ورمّ لها ربوع السلم وجدّد مزارها ، أصبحتُ وإذا العوادى مقصرة والدواعى غير مقصرة ، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّ والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت النفس بمرآه الأرب واكتحلت العين فى ثراه بآثار العرب . . . »[1].

ورواية لادياس التى ألفها فى أخريات القرن الماضى من هذا اللون الذى يُحفَل فيه بالسجع والبديع .

وليس من شك فى أن شوقى كان يسير فى هذا الدرب مطاوعةً لزمانه وجرياً على ذوق عصره . فلما انصرم زمان السجع وهبَّ شباب الأدباء يحاربون هذا الضرب من النثر رأينا أمير الشعراء يتخلى شيئاً فشيئاً عن هذه الطريقة الفاضلية . وهذا واضح فى آخر إنتاجه ، وهى مسرحية ( أميرة الأندلس ) التى وضعها عام ١٩٣٢ قبيل وفاته ، فليس فيها من السجع إلا القليل الذى يجىء عفو الخطر[2].

والحق أن النابهين من شباب الأدب قد أخذوا فى الثلث الأول من هذا القرن يحاربون الحفاظ على هذا الأسلوب العتيق ، ويدعون إلى تحرير النثر من تلك الأصفاد التى ظل مقرّناً فيها قروناً طويلة. وكان على رأس هؤلاء الداعين المنفلوطى والمازنى والعقاد رحمهم الله ، وطه حسين مدّ الله فى حياته . وكانت حملاتهم فى هذا الميدان قوية مثمرة . انظر إلى ما يقوله أستاذنا الدكتور طه فى هذا الباب : « لا يخدعنك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى من سجع وتكلّف فى الاستعارة والتشبيه والكناية والتورية وما إليها . فليس هذا كله إلا تكلّف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر المثرى. إنما مثل هؤلاء الكُتّاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها

---

(١) الشوقيات ٢/٥٢ .

(٢) انظر رواية (أميرة الأندلس) طبعة دار الكتب سنة ١٩٣٢ .

الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة ، وأعوزها حُرّ الحلى فهى تخدع الناس ببهرجه وزائفه »[١] .

وقد كان لهذه الحملات العنيفة أثرها البالغ فى أن تتحرّر النثر من تلك القيود البغيضة وأصبح طليقاً مرسلا يقرِى العقل والقلب لذة وإمتاعاً .

وقد تأثر حافظ بهذه الدعوة وأخذ يتخلص إلى حد ما من الجرى وراء شوارد الغريب والزخارف اللفظية التى رأيناها فى كتابى البؤساء وليالى سطيح . وهذا ظاهر بيّن فى كتابى « كتيب فى التربية الأولية والموجز فى علم الاقتصاد» . فأنت تقرأ فيهما أسلوباً مرسلا حرًّا، فيه وضوح وفيه سهولة ، وبخاصة الكتاب الأول ليكون ملائماً لطلاب العلم والثقافة. وحافظ يشير إلى ذلك فى مقدمة الكتاب فيقول :« ولم أنزل به إلى منزلة الساقط المرذول، ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ، ولكن جعلتُ لى سبيلا قصداً بين الغايتين »[٢] .

والواقع أنه تأثر بالدعوة إلى التحرر تأثراً كبيراً .

* * *

وبعد ، فهذا هو حافظ إبراهيم شاعر النيل كما رأيته ، وأشهد أننى أخلصتُ فى دراسته كل الإخلاص ، لم أتحيّف فى الرأى ولم أتحرّف فى القول. وقد يأخذ عنى البعض أننى قسوتُ عليه بعض الشىء فى كثير من المواطن ، ولكنى أشهد الله أن ذلك لم يكن عن قِلىً أو حاجة فى النفس، وإنما أردت أن أرضى الحق والتاريخ والفن جميعا .

وعسى أن يجد القراء فى هذا الكتاب صورة واضحة المعالم للرجل فى إطار من النزاهة والنصفة ، والله ولى التوفيق . . .

---

(١) حافظ وشوقى ص ٦٩ .

(٢) انظر مقدمة «كتيب فى التربية الأولية » .

| | |
|---|---|
| رقم الإيداع | ١٩٨١/٣٦٦٩ |
| الترقيم الدولي | ISBN ٩٧٧-٧٣٤٩-٥١-٣ |

١/٨١/٣٢

طبع بمطابع دار المعارف ( ج. م. ع. )